الدرس الحادي عشر

**مضامين القصيدة الصوفية**

**تعريف التصوف**

**أ- لغة:**

قال الفيروز أبادي: " قال ابن سيده: الصوف للغنم، كالشعر للمعز، و الوبر للإبل و الجمع أصواف"، و قال: "و قولهم أخذت بصوفة رقبته، و بصافها: يجعلها أو بشعره المتدلي في نقر قفاه و صوفه."

وعرفه أبو القاسم القشيري في رسالته: "هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة (طائفة المتصوف)، فيقال: رجل صوفي، و للجماعة صوفية و من يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف، و للجماعة متصوفة، و ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، و إلاّ ظهر أنه كاللقب. و يقول أيضا: "فأما قول من قال: إنه من الصوف، و تصوف إذا لبس الصوف. كما يقول تقمّص : إذا لبس القميص، فذلك وجه و لكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف".

**ب- اصطلاحا:**

يعرف الإمام الجنيد التصوف بقوله: "التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، و مفارقة الأخلاق الطبيعية، و إخماد الصفات البشرية و مجانبة الدواعي النفسانية، و منازلة الصفات الروحانية، و التعلق بالعلوم الحقيقية و استعمال ما هو أولى على الأبدية والنصح بجميع الأمة و الوفاء لله على الحقيقة، و اتباع الرسول– صلى الله عليه و سلم- في الشريعة".

وقال أبو القاسم إبراهيم بن محمد: "أصل التصوف ملازمة الكتاب و السنة و ترك الأهواء و البدع و تعظيم حرمات المشايخ و إقامة المعاذير للخلق و المداومة على الأوراد و ترك ارتكاب الرخص و التأويلات".

وعرفه الجنيد بتعريف آخر يقول فيه: "التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة."

و يعرفه بشر بن الحارث بقوله: "الصوفي من صفا قلبه لله".

و سئل أبو يزيد البسطامي: » ما التصوف؟ قال: "صفة يلبسها العبد".

و يعرفه محمود الكرخي: "التصوف الأخذ بالحقائق و اليأس في أيدي الخلائق".

**الجمال عند طائفة الصوفيين:**

تنهض حقيقة الجمال لديها على الوحدة والعشق والانسجام، فهي ترى وعلى امتداد العصور أن كل الحقائق ومن ضمنها حقيقة الجمال فهي سماوية-أرضية، فما يظهر لنا أرضيا هو في باطنه سماوي، و ما يظهر لنا كذلك سماويا فهو في باطنه أرضي.

وذلك أن العلاقة بين السماء و الأرض هي علاقة محبة ووحدة، و المعرفة هي هدية الله للإنسان، قال تعالى: (وعلم ّ آدم األسماء كلها) البقرة/11.

وهنا نلاحظ أن الجمال هو صراع النفس مع الظواهر ويتم ذلك بالاحتكاك والمقابلة، وهذا لا يمثل صراعا، إنما هو مجاهدة النفس لتوليد طاقة خيّرة تنفع المجتمع وبالتالي فهذه الطاقة تولد المحبة والعشق على مر العصور.

**الشعر و التجربة الصوفية:**

لا مناص من أن تنعقد العلاقة بين التصوف و الأدب بصفة خاصة، فهي علاقة مميزة قوية كرسها الزمن والفعل والممارسة النصية المتواترة، فأهداف الصوفية تتفق إلى حد بعيد مع أهداف الأدب الإنساني؟ حيث أن الممارسة اليومية للصوفية على أرض الواقع من أفعال و ممارسات من أجل أهداف خاصة يكرسها الأدب في نصوصه و يعبر عنها ويحاول إيصالها إلى الفكر الإنساني، فالمعروف أن الوحدة العضوية التي تميز الأعمال الأدبية الناضجة عبارة عن تجسيد موضوعي لوحدة الكون التي تتكون بصفة خاصة، في علاقة الحب الصافي و النقي بين الخالق و المخلوق، فالتصوف باعتباره تجربة نفسية ووجودية ذات خصوصية دينية لا يمكن أن يظل بعيدا عن الشعر، هذا الحس الأدبي العريق الذي وجد و الحب الإنسان منذ بدايته الحضارية.

**الرؤى الصوفية للجمال:**

- العناصر المحققة للجمال:

وهذا التعريف لا يتحقق إلا بتحقق الأشياء التالية في الجمال:

**أولا: نوع خارق من الإنسجام والتناسق**، ناجم عن دقة كاملة في الأحجام و النّسب، ويقصد بذلك ضرب من سحر الأعداد مليء بالحركة و الحيوية.

ثانيا: النزعة اإلنسانية: التي لا تعني نوعا من التشبيه و التحسيمية الإدراكية الخالصة لصفات البشرية على الله تعالى، وإنما تعني أخذ الإنسان مقياسا سببيا للجمال و استخدام جسمه كجوهر للتعبير عن الجمالية لأجل التخلص من كل ما هو غير إنساني و قبيح بجميع أشكاله و مظاهره. كما تعني أيضا استخدام عالم الحيوان كوسيلة هامة للتعبير عما هو رباني و إلهي، أو عن المدارك الأكثر نبلا.

**ثالثا: الوقار البليغ:** و هو مزيج من النبل و الاعتدال وهدوء العظمة الاخلاقية و المعنوية قبل أن تكون عظمة مادية.

فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحقق الأعجوبة الجمالية للجمال وتغدو أفقا دافقا بالحيوية والأحاسيس العميقة الإيقاع وبالاستجابة للرغبة في تجميل الحياة، و ذلك عن طريق الفعل والإبداع الفني، فالماهية الجمالية للفن .....، صيغا للجمال قد تكون في الفن خاصة وفي غيره من الظواهر والأحياء والأشياء، إذ الجمال أعم من الفن، وهو موجود موضوعي في الواقع، وفي الطبيعة والمجتمع، ولكن صلة المجتمع بواقعهم تبقى صلة اجتماعية، لأنها مؤسسة على مستوى تطورهم العلمي و الاجتماعي، و على مستوى مثلهم الجمالي الأعلى.

**التصوف في الشعر العربي:**

قبل تسليط الضوء على أبرز ما ورد من أشعار صوفية، لا بدَّ من تعريف التصوف في الشعر، والتصوف هو الشوق إلى الله تعالى، وهو حالة من الحب الإلهي الذي لا يكون لأي غرض من الأغراض، بل هو حب مجرَّد ومنزَّه من كلِّ مكسب أو مطلب، غايته الأسمى الحب ولا شيء غيره، ويتحقق هذا الحب من خلال مجاهدة النفس وإدخالها في حالة من الزهد المطلق، فالزهد مرحلة أولى من التصوف، وهو أول مراتب التصوف، ومن الجدير بالذكر إنّ الشعر الصوفي ظهر في العصر الأندلسي ونضج فيه، [فالأندلس](https://sotor.com/%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%86%D8%AF%D9%84%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%AF%D9%8A%D9%85/) هي البيئة التي تشكلت فيها ملامح القصيدة الصوفية والمكان الذي نما فيه معجم الشعراء الصوفيين، فالقصيدة الصوفية تميَّزت بمعجم لغوي خاصٍّ بها، تدور ألفاظه حول مناسك الصوفية من حضرات ومجالس ذكر، ومن أبرز ألفاظ المعجم الصوفي: المدامة، الكأس، الساقي، النشوة، الخمر، الحضرة، الحب، الهُيام...

وقد اشتهرت في تاريخ الشعر العربي أشعار صوفية كثيرة، كان أبرزها شعر [ابن الفارض](https://sotor.com/%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%A7%D8%B1%D8%B6-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%84%D9%87%D9%8A/) الذي لُقِّب بسلطان العاشقين، كما يُعدُّ [السهروردي](https://sotor.com/%D9%86%D8%A8%D8%B0%D8%A9-%D8%B9%D9%86-%D8%AD%D9%8A%D8%A7%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%87%D8%B1%D9%88%D8%B1%D8%AF%D9%8A/) أحد أبرز الشعراء الصوفيين في تاريخ الشعر العربي، كما عُرف [محي الدين ابن عربي](https://sotor.com/%D9%85%D9%86-%D9%87%D9%88-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A/) أيضًا بشعره الصوفي [والحلاج](https://sotor.com/%D9%86%D8%A8%D8%B0%D8%A9-%D8%B9%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%84%D8%A7%D8%AC/) وغيرهم من الشعراء الصوفيين الذين أثروا تاريخ الشعر الصوفي بأجمل وأبلغ القصائد.

**نماذج من الأشعار الصوفية:**

بعد ما جاء من تعريف التصوف في الشعر، لا بدَّ من المرور على أبرز ما جاء في تاريخ الشعر العربي من أشعار صوفية كتبها شعراء صوفيون، فخلَّدوا الشعر الصوفي في ذاكرة [الأدب العربي](https://sotor.com/%D9%85%D9%82%D8%AF%D9%85%D8%A9-%D8%B9%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A/)، وقد تميَّز ما وردَ من أشعار صوفية بمعجم لغوي خاص يشي بانتماءات شاعرها الصوفي، وفيما يأتي أبرز ما جاء من أشعار صوفية في تاريخ الشعر العربي:

* **مما جاء من أشعار صوفية قصيدة لابن الفارض يقول فيها:**

|  |  |
| --- | --- |
| قلبي يُحَدّثني بأَنّكَ مُتْلِفِي | روحي فِداكَ عرَفْتَ أمَ لم تَعْرِفِ |
| لم أَقْضِ حَقّ هَواكَ إن كُنتُ الذي | لم أقضِ فيِه أسًى ومِثليَ مَنْ يَفي |
| ما لي سِوَى روحي وباذِلُ نفسِهِ | في حُبّ مَن يَهْواهُ ليسَ بِمُسرِف |
| فلَئِنْ رَضِيتَ بها فقد أسعَفْتَني | يا خَيبَة المَسْعَى إذا لم تُسْعِفِ |
| يا مانِعي طيبَ المَنامِ ومانِحي | ثوبَ السّقامِ بِهِ ووَجْدِي المُتْلِفِ |
| عَطفًا على رَمقي وما أبقَيتَ لي | منْ جسميَ المُضْنى وقلبي المُدَنَفِ |
| فالوَجْدُ باقٍ والوِصَالُ مُماطلي | والصّبْرُ فانٍ واللّقاء مُسَوّفي |
| لم أَخلُ من حَسَدٍ عليك فلا تُضِعْ | سَهَري بتَشْنِيع الخَيالِ المُرجِفِ |
| واسأَلْ نجومَ اللّيلِ هل زارَ الكَرَى | جَفني وكيف يزورُ مَن لم يَعْرِفِ |
| لا غَرْوَ إن شَحّتْ بغُمْضِ جُفُونها | عيني وسَحّتْ بالدّموعِ الذّرّفِ |
| وبما جرَى في موقفِ التوديعِ مِنْ | ألمِ النّوَى شاهدتُ هَولَ الموقفِ |
| إن لم يكنْ وصلٌ لدَيْكَ فعِدْ به | أَمَلي وَمَاطِلْ إنْ وَعَدْتَ ولا تفي |
| فالمَطْلُ منكَ لدَيّ إنْ عزّ الوفا | يحلو كوَصَلٍ من حبيبٍ مُسْعِفِ |
| أهْفُو لأنفاسِ النّسِيمِ تَعِلّةً | ولوَجْه مَن نقَلَتْ شَذَاهُ تشوّفي |
| فلَعَلّ نارَ جوانحي بهُبُوبِها | أن تنطَفي وأوَدّ أن لا تنطَفي |
| يا أهلَ وُدّي أنتم أَمَلي ومَن | نَادَاكُمُ يا أَهْلَ وُدّي قد كُفي |
| عُودوا لِما كُنْتُم عليه من الوفا | كَرَمًا فإنّي ذَلِكَ الخِلّ الوَفي |
| وحياتِكُمْ وحياتِكُمْ قَسَمًا وفي | عُمري بغيرِ حياتِكُمْ لم أحْلِف |
| لو أَنّ رُوحي في يدي وَوَهَبْتُها | لمُبَشّري بِقُدُومكمْ لم أُنْصِف |
| لا تحسَبُوني في الهوى مُتَصَنّعًا | كَلَفي بِكُمْ خُلُقٌ بغيرِ تكلُّف |
| أخفَيتُ حُبّكُمُ فأخفاني أسًى | حتى لعَمري كِدْتُ عني أختفي |
| وكتمْتُهُ عنّي فلو أبدَيْتُهُ | لوَجَدْتُهُ أخفى منَ اللُّطْف الخَفي |
| ولقد أَقولُ لِمَنْ تحَرّشَ بالهوى | عرّضْتَ نفسَكَ للبَلا فاستهدف |
| أنتَ القَتِيْلُ بأيّ مَنْ أحبَبْتَهُ | فاختر لنَفْسِكَ في الهوى من تصطفي |
| قُلْ للعذولِ: أطلْتَ لومي طامعًا | إنَّ الملامَ عن الهوى مُستوقِفي |
| بَرَحَ الخَفاء بحُبّ مَنْ لَوْ في الدّجى | سَفَرَ اللّثامَ لقُلْتُ يا بدرُ اختَفِ |
| وإن اكتفى غَيري بطَيفِ خيالِهِ | فأنا الّذي بوِصالِهِ لا أكتَفي |
| وهَواهُ وهْوَ أليّتي وكَفَى بِه | قَسَمًا أكادُ أُجِلّهُ كالمُصْحَفِ |

**- ومما ورد من أشعار صوفية قول الحلاج أيضًا:**

|  |  |
| --- | --- |
| يا نسيم الرُّوح قولي للرَّشَا | لم يزدنِي الـِورْد إلا عطشَا |
| لي حبيبٌ حبّه وسط الحشَا | إن يشَا يمشي على خدّي مشَى |
| روحه روحِي وروحِي روحُهُ | إن يشا شئتُ وإن شئتُ يشَا... |

**- ومما ورد من أشعار صوفية قول الشاعر**[**سمنون المحب**](https://sotor.com/%D9%85%D9%86-%D9%87%D9%88-%D8%B3%D9%85%D9%86%D9%88%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AD%D8%A8/)**:**

|  |  |
| --- | --- |
| وقد كان قلبي خاليًا قبل حبكم | وكان بذكر الخلق يلهو ويمزحُ |
| فلمَّا دعا قلبي هواك أجابه | فلستُ أراه عن فنانك يبرحُ |
| رُميت ببينٍ منكَ إن كنت كاذبًا | إذا كنت في الدنيا بغيرك أفرحُ |
| وإن كان شيءٌ في البلاد بأسرها | إذا غبت عن عيني بعيني يلمحُ |
| فإن شئت واصلْني وإن شئتَ لا تصلْ | فلستُ أرى قلبي لغيرك يصلحُ |

**- ومما جاء من أشعار صوفية قول السهروردي:**

|  |  |
| --- | --- |
| أَبداً تَحنُّ إِلَيكُمُ الأَرواحُ | وَوِصالُكُم رَيحانُها وَالراحُ |
| وَقُلوبُ أَهلِ وِدادكم تَشتاقُكُم | وَإِلى لَذيذ لقائكم تَرتاحُ |
| وَا رَحمةً للعاشِقينَ تَكلّفوا | ستر المَحبّةِ وَالهَوى فَضّاحُ |
| بِالسرِّ إِن باحوا تُباحُ دِماؤُهم | وَكَذا دِماءُ العاشِقينَ تُباحُ |
| وَإِذا هُم كَتَموا تَحَدّث عَنهُم | عِندَ الوشاةِ المَدمعُ السَفّاحُ |